

# المقطف

الجزء السادس من المجلد الرابع والثلاثين

١ يونيو (حزيران) سنة ١٩٠٩ - الموافق ١٢ جماد اول سنة ١٣٢٧

## السلطان عبد الحميد

في مثل هذا اليوم من العام الماضي لم تكن نرى كاتباً واحداً يخطي سياسة السلطان عبد الحميد ويندد بأعماله حتى نرى منه كاتب يصور بون سياسته ويتخون بمدحه ويقولون انه يجمع الفضائل وآية الحكمة والعدل . حتى ان أكثر الخطب التي تليت في بلاد الشام ونشرناها في المقطف كانت مفتحة وثقتة بتبريل آيات الحمد له والدعاء بتأييد شركته الى آخر الدوران فكنا نخذف ذلك منها لاننا لا نجد له محلاً في الخطب الخطبة او الادية وقتها كنا نفيج من لوم اسماها . ولو جمعت التصانيد التي نظمت في اطرائه والكتب والتصول التي كتبت في تعداد مناقبه للملأت مئات من المجلدات . وقد انتلبت الحال الآن اي انقلاب قبرى من المئة الذين كانوا يمدحونه ويمجدونه نسمة ونسعين يهاهرون بدمه ويقولون انه كان ظاغية سفاحاً خرب البلاد وسلب العباد حتى لقد قال فيه اكبر اذعيه بالاس

شبع الحوت من طوم البرايا ويبيع الجنود تحت البنود

واكثرهم اعند الا في يوم الوم م الذين كانوا ينددون سياسته بالاس

ولا يمسن بالره ان يقف لدي هذا الحارث الجلل وهو قيام السلطان عبد الحميد وسقوطه الا وينظر اليه نظر الموزج الذي يتوخى ذكر الحقائق خالصة من شوائب التجميل والتلئق سواء يمجد فيها عبرة وذكرى

يرى الباحث الاجتماعي اسراً لا يخفى على احد وهو ان المالك النامية للعرش العثماني كانت في سالف عهد ما ارق منها الآن وان الاخطاط ترواها منذ اني سنة ثم جعلت تملو وتسلل اوتة بعد اخرى واتجاهها الى الاخطاط اكثر منه الى الارتقاء كوج البحر وقت

جزره حتى اذا كان الثرثان الاخيران اللذان ارتقت فيهما عمالك اوربا ارتقاء لا مثيل له في عصر التاريخ السابعة ظهر الفرق التاسع بيننا وبينها على النحو . ولهذا الاضطط اسباب كثيرة قد نغذر معرفتها كلها وليس من غرضنا البحث فيها الآن ولكن لا شبهة في انها ليست مرتبطة بطبيعة البلاد ولا باحوال سكانها الجسدية والعقلية . وبقيتنا انه بسهل عليهم بلرغ اهل مراتب الامم الاوربية اذا سمعوا الى ذلك في طريقه وزالت الحوائل التي تحول دونه واخذوا باسباب العمران كما اخذ بها غيرهم من سكان المشرق والمغرب وهي على ابوابهم مسورة لم كما هي مسورة لسوام . فاناب المثالي يستطيع ان يعبر طيبكا او قاصبا او تاجرا او مهندسا او قائدا كما يستطيع ذلك الشاب الانكليزي او الفرنسي او الالماني . والفلاح المثالي يتقن حرفة وزرعته مثل الفلاح الفرنسي ويتصد في تقاناته مثله او اكثر

ولا شبهة ان البلاد ارتقت بمض الارتقاء في العهد الاخير عهد السلطان عبد الحميد واكثر الفضل في ذلك للرسالات الدينية الاميركية والانكليزية والفرنسية ولتجار الذين اقاموا في بلادنا ولاصاننا بالاوربيين واتصال الاوربيين بنا

واسانين محمود حكم السلطان عبد الحميد من كل ثمرة نافعة فقد كانت له مزايا كثيرة ولا سيما في اوائله وقد راق لنا حينئذ ما كتبه الاستاذ فيري الجري في هذا الموضوع منذ تسع عشرة سنة فترجمناه ونشرناه في صدر الجزء الحادي عشر من المجلد الرابع عشر من المتنطف وكان السلطان قد استعاضه اليو واطعمه على مائدته واخذق عليه نعمة فقال

" ان جلالة لا يترك واسطة للملاطفة فيرفو وبسطهم الا اجراها فقد قدموا لي على مائدته يوما صحيفة من الفروله ( الفريز ) مرتبة في خطوط وصفوف بحسب الوانها وعلى وجه الصحيفة رفة كتب فيها هذا من الاثمار التي ربها جلالة يدور . وقد موالى مرة تقاحة وخوخة من اشهى ما رانه عيني واحق جلالة راسة اشارة الى تكريميها خصصا . ولما دعيت آخريلة على مائدته شجاني ساجع الالحان الجزرية تصدح بها الموسيقى السلطانية في قاعة مجاورة فالتفت نحوها واذا خادما واقف يجاني فخياي وقال لي ان جلالة مولاي السلطان ارسلني لابلنك ان الموسيقى السلطانية نعت الفن الجزري الوطني بأمر خصوصي لتحمك اياه هذه البيلة "

ولال في اوصافه الشخصية انه " يقضي يومه من الصبح باكرا الى ان يتناهى الماء سجا بقضاء اشغال الدولة وهنم السلطنة ناخرآ في كل قضية مهمة وغير مهمة مستوعبا كل تفاصيلها حتى يكاد يقضي صحته وبقاوق سير الحكومة . وقد دخلت عليه يوما فوجدته جالسا على

ديارهم وعن ميينو عدد طديد من الجرائد التركية وترجمات من الجرائد الاجنبية تتراكمه بمجانبه  
كوتما عاليًا وعن يارو ما يضاها من اوراق الحكومة المعروضة على جلالتهم لمراجعتها  
والتوقيع عليها . وكان وهو محدثي ينظر من طرف خفي بمنة وبسرة طويلا لما يتردد به  
نفسه من حب الرجوع الى مطالبته . ولا يخفى ان الدولة التي يجهد سلطانها نفسه كل هذا  
الجهد في قضاء مهامها يضيق نطاق سلطه وزدائها . وبندر وجود سلطان مثله بقضي مع  
وزير ماليه الساعات الطوال وهو مكب على مراجعة حسابات السلطنة وتوقيع دفاترها  
وامعان النظر في تفاصيلها واجهاد الترجمة في استنباط التدبير والاحتياط اللازم للاقتصاد  
وقال مدافعاً مما كان يأتيه من الاستبداد في حكمه لا ازي اسد من كلامه  
حيث قال لي يوماً ان اوربا قد هزقت ارضها ومهدت تربتها احوالاً وعصراً حتى جاءت بما  
زراه فيها من مصادر الحرية والنشآت الحرة والآن تطلبون الي ان اقلع نسيلة من نبات  
الحرية التي فيها واخرسها في اراضي اسيا الوعرة البائرة الفاحلة . دعوتها انهد هذه  
الاراضي تبالاً بما يحتملها فانتلع اشواكها وارفع اجمارها واقطع تربتها واحفر الاقية لاروايتها  
ثم انقل تلك النسيلة اليها واكون اول من يطيب نفساً ويقر عيناً بناتها وفزارتها  
ونفى عنه استخدام الجوايس وقال ان كل ما سمع من هذا القبيل اخلاقي او بالغة  
وغلو واصل تلك الاقوال كلها ان رجالاً من ادل البلاط يستخدمون الجوايس سرا  
ويرصدون السيون خفية لاجراء دسائسهم ومكابدم الشريرة وتنفيذ ما يرمهم الفاسدة  
وجلالته عالم بكرهم ودهانهم ولكن كشف حيلهم واظهار دسائسهم ومكابدم ليس بالامر  
السهل شيد كما يتوهم الاوربيون في بلادهم  
هذا ما كتبه الاستاذ فيبري منذ نحو عشرين سنة وهو يعلم انه سيتبرج للسلطان  
عبد الحميد فيطلع عليه ويميزه على مدحه احسن جزاء . وقد قال في صدر مقالته ان الناس  
في البلدان الشرقية على دين ملوكهم فانظر الى الملك تعرف رعيته . وحقه ان يقول ايضاً  
انظر الى الرعية تعرف ملكها وانظر الى المترين تعرف الملك الذي قرهم اليه  
وقالة فيبري مع ما فيها من المدح وكثير منه كان في محله لا تخلو من الاشارة الى  
الاسباب التي كان لها اليد الطولى في افساد السلطنة كما رأيت في ما تقدم فان كثرة  
اشتغال الحاكم بالمسائل الهامة وغير الهامة تضيي جسمه وتضعف عقله وتفسد احكامه  
وتقيد وزراره وتبطل نفهم . ولا يعد ان كثرة اشتغال السلطان عبد الحميد اورثته  
خطأً عقلياً وهو ايجاس الشر وظروف المستر من كيد المكابذ له ان لم يكن ذلك خلقاً

قدية فيو فاستعان بالجنوايسيس على كشف المكاييد الموهومة واستحسن كل شيء للنجاة منها .  
وعرف الدهاة منه ذلك فتميزوا اليه بكل ما يزيد وسامته ويؤثر في نفسه استدراكاً  
لعمه فاضطروا ان يكثروا موارد امواله ليستطيع استرضاءهم ورأى غيرهم منه ذلك فساعدوه  
على جمع الاموال واقتناء الاملاك بكل وسيلة فبلغ الساد في السلطنة مبلغاً لا نظيره له  
حتى ان مختار باشا الغازي كان يقول لنا حينما يطلب منا الكف عن انتقاد معاييب الحكومة  
العثمانية انكم لا تعلمون منها عشر ما اعلمه انا ولكنني اؤكد لكم ان الانتقاد يضركم ولا  
ينفع احدًا

وماد الامتاذ فيبري تعرف خطاه وارعوى ورأى عيوب الحكم الحميدي كما رآها غيره  
وهو يرجو اصلاح الآن لتركيا بهمة رجالها الدستوريين كما يرجوه غيره من المفلسين لها  
وتكثرت الواسوس من عبد الحميد حتى صار يعتقد ان الناس كلهم يأثمون عليه  
ويقصدون الايقاع به فلم يعد يهاب له عيش الا فحس اختياره وصار آلة في ايدي  
المحتالين يرمونه بتأليب الجماهير على الشك به وانهم هم وحدهم القادرون على كفض شرم  
عنه فذلك وحرصه على كثرة المنتديات وحرصه المفرين منه على تملقهم وظلم الناس باسمه  
وجشع بعض الاقائين من رعيته ومن غير رعيته كل ذلك ولد في السلطنة العثمانية حالة  
لا تطاق فحجروا الذي استطاعوا المواجهة وصير على النسيم اثنين النوع من احرار النفوس  
واشترك غيرهم في الساد الذي عم وطم الى ان تمكنت جمعية الاتحاد والترقي من اعلان  
الدستور فتظاهر اولاً ان ذلك كان برضاه وهو غاية ما يقتضاه ثم دس لها السماس وشاركه  
اهوائه حتى كاد يرفع بها ولو صبغ السلطنة بالدماء لكنها تمكنت من خلعه وتصبب اخيه  
بدلاً منه كما هو معلوم

والسلطان عبد الحميد هو الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان والثامن والعشرون  
منهم في السنطيطية ولد في ٢٢ سبتمبر سنة ١٢٤٢ وابوه السلطان عبد الحميد وامه سرية  
ارمنية والصفات الارمنية ظاهرة فيه خلقاً وخلقاً . وتوفيت امه بمرض الصدر وعمره سبع  
سنوات واصيب هو به في صغره لكنه شفي منه وكان في حدائقه ضعيف البنية قليل الرغبة  
في العلم . واولاد السلاطين يعلون مع التركية والفارسية لغة اجنبية اما هو فكان يكره تعلم  
اللغات رغبة ما حفظه منها قليل من الفرنسية قطرة من فتاة بلجيكية . وربي تربية لا تشفق  
العقل ولا تهذب الاخلاق ولا تدب الطباع . وزير اوربا مع عمه السلطان عبد العزيز  
ويقول الامتاذ فيبري ان صورته ومشاهدتها انطبعت في ذاكرته ويقول المستر منرو

انه لم يستفد من هذه الزيارة شيئاً فبقي على كرهه للاوربيين  
وقد ألف جورج دوريس بن ادوميدس باشا والي كريت كتاباً في السلطان عبد الحميد  
طبع منذ نحو ثمانين سنة وصفه فيه في حياته وصفاً يفسر ما صار اليه في كهولته . ويظهر  
ما ذكره في كتابه انه عاش حول بلديز وكان له نرس غير عادية لتقوف على احوال  
السلطان واعماله فعرفها معرفة من يراها عن قرب ويعلم سوابقها ولواحقها وما تربي اليه وقد  
قال في كتابه ان السلطان عبد الحميد لم يهتم قط باصلاح بلاد بل فعل كل في طاقته فخرابها  
منذ خمس وعشرين سنة الى الآن تخفق جرثومة الحربه التي كان يمكن ان تهيي البلاد وقطع  
عنى استقلالها وهو في مهدو غصم السطة في يده بالحيلة واودى بكل من اوجس منه  
الخافه له وشل اعصاب حب الوطن وكم ثم الصدق وتبد استغلال السكر والقمير وذبح  
الاولف من رعاياه ولم يهتم الا بتميز عرشه بها كلف البلاد لاستخدم في سبيل ذلك الصنيفة  
والجاسوسية والجهل والجور والرشوة والصرامة وما بين الرجال من الضائن والاحقاد

وكتاب دورس مشحون بمثل هذه المذام وقد حُكِم عليه بالاعدام بسببه فهرب الى  
باريس ولم نشأ الحكومة الفرنسية ان تسيء للحكومة العثمانية . الا ان غيره من الكتاب لم  
يراقبه على كل ما كتب فالاستاذ ادون غرفنور الاميركي وقد كان من اساتذة مدرسة روبرت  
الاميركية في الاساتمة وصفه منذ خمس عشرة سنة وصفاً لا يوصف به الا اعظم الملوك  
واعظم فقال انه كريم جواد يهتم بخير رعيته وليس بين الملوك من يخاربه في الجود على ذوي  
البأساء . لكنه ذكر في عرض ذلك ما يجب مصلراً اليه الاحكام وهو اهتمامه بالمسائل  
كما تقدم فقال انه يهتم اشد الاهتمام بكل مسألة بها كانت طيفه

وكذلك ده سره شمس اليوناني نفى مدحه وقال انه سائر في خطة محمد الفاتح ومليان  
القانوني وقد عضد المعلوم والفنون وهو رديع اليس كريم مستفيع ذكي الفواد عالي الهمة كثير  
الاشتغال بهام السلطنة شديد الاحكام فيها

وقال صموئيل كوكس سفير اميركا في تركيا انه ملك بكل معاني الحكمة ويستحق اعظم  
مدح على ما يديه من المقدرة في سياسة بلادور والتوفيق بين شعوبها المختلفي  
الاجناس والمذاهب

وقد كتب هذا السفير ذلك منذ ١٧ سنة . والظاهر ان اكثر الذين كتبوا عن  
السلطان عبد الحميد قبل المذاهج الارمنية كانوا ميالين الى مدحه واطراء سياسته ولو  
ذكروا عرضاً كلوة اشغالهم واهتمامهم بالمسائل الطفيفة . ويظهر من ذلك ان الاعمال الظاهرة

التي منها في الصف الاول من سني منكره كما اكثرها بما يدح عليه وان الاعمال المذمومة التي حمله عليها خوفه على نفسه كقتله ملدحت باشا كان يفعلها خفية ثم زاد خوفه على نفسه وايضا الشرفا اكثر من استخدام الجواميس وصار وسواسه هذا يزيد اقداما على الفتك بالذين يخاف منهم والفتك بهم يزيد خوفه وسواسه . مرض عصبي استولى عليه وزاده المقربون منه مرضا يجعلهم وشاياتهم وكاذبيهم . ولقد صدق بتلقيهم بالخوف ولعله كان يعلم دائما انهم كذلك ولكنه كان يخشاهم ولا يستطيع التخلص من استهوائهم . وكيف يستطيع وهو مصاب بالضعف العصبي (Neurasthenia) كما قال احد اطبائه وبالارق الزمن وبالظروف من الاغتيال حتى صار يحسب ان الناس لا يأثرون الا على قتله فيلقون القنابل في طريقه ويحذرون الامراب تحت الارض للرسول اليه . وان صح ما روي عنه من انه قتل ابنة صغيرة من بناته مخافة ان تكون قاصدة اغتياله فذلك وحده كاف لتفسير كل اعماله .

وما ابتلاؤه بهذا النوع من الجنون باغرب من صبر اهراقه عليه وتسايقهم الى الانتفاع من وسواسه وهم يرون هيبوسهم ما حل بالسلطنة ولا يأتون على انفسهم يوما بين يديه واذا تيسر لاحد منهم الفرار من الامتانة او الخروج منها لم يعد اليها بها اخري بالمواعيد . وهل انقضى اولئك الاعوان الا ان لا يخشى انهم يتقربون الى السلطان الجديد بثل ما تقربوا به الى السلطان المنفوع . قرأنا بالامس خرافة نشرت في جريدة عربية بمدينة باريس يظهر لغارتها ان كاتبها يقصد ان يتوسل بها الى ايام جلالة السلطان بصحة معرفة الطوائف وصدق الخزعبلات . والا وهام التي من هذا القبيل قد تجوز على عقول العلماء فلا عجب اذا جازت على عقول ملوك المشرق الذين ليس لهم حظ كبير من درس العلوم الطبيعية والبحث عن تقاض الخرافات ولذلك لايمان للامة المثالية الا اذا تولت احكامها وزارة قوية رشيدة من مجلس نواب يضم نخبة رجالها المتفكرين المنورين

لكن ما نقرأه عن جلالة السلطان محمد الخامس يفتق لنا انه يكون سلطانا دستوريا يحق قدر روي انه قال لوفد من اعيان مدينة بروسه لقدسوا مني فان الرعية يجب ان تكون متصلة بسلطانها غير متخافة عنه . وقال لم ايضا ان الامة تجده السلطان دائما ولكن السلطان لا يجدها دائما فاذا صار على هذه الخطة دائما ولم يقرب الا الاكفاء المخلصين للوطن حقق فيه امال رعيته